سلسلة مفاهيم يجب أن تصحح

١٥

كلمة هادئة في

التصوف

بين الإفراط والتفريط

بقلم الدكتور

عمر عبد الله كامل

دار الرازي

سلسلة مفاهيم يجب أن تصحح

١٥

كلمة هادئة في

التصوف

بين الإفراط والتفريط

بقلم الدكتور

عمر عبد الله كامل

دار الرازي

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تمهيد

إن من أكبر المسائل التي قام حولها جدل فكري كبير: مسألة التصوف. وأصوله، ومؤيداته الشرعية، وطرقه، وأهدافه. ولم يتوقف هذا الجدل عند عصر معين، بل استمر عبر عصور الفكر الإسلامي، فكان في كل عصر بين مؤيد ومنكر، ومناصر ومعارض، ومتعصب ومتحامل.

والعجيب أنك تجد بين الفريقين مخلصين للحق ومتجردين له، ومع ذلك لم يوصلهم إخلاصهم إلى نقطة واحدة يجتمعون عليها، بل على النقيض من هذا؛ كلما أوغل كل منهما في محبته ازداد بعداً وتناقضاً، فكيف حصل هذا؟ ومريد الحق لا بد أن يصل اليه!!!

قال الدكتور عبدالحليم محمود شيخ الأزهر جواباً عن هذا التساؤل في تقديمه لكتاب «التعرف لمذهب أهل التصوف» لأبي بكر الكلاباذي: «إن أمر التصوف في الواقع ليس أمر جدل أو أخذ أو رد، وإنما هو تعرف، والتصوف تجربة، والتجربة شعور، والشعور ليس منطقاً ولا برهاناً، إنما هو تعرف، وقديماً قالوا: من ذاق عرف، وبالتالي فإن من لم يذق لم يعرف.

وكتاب المؤلف إذن ليس إلا محاولة للتعبير بالألفاظ عن الشعور المتدفق الفياض، وهذا التعبير لا يفهمه حق فهمه إلا من شعر به..» اهـ باختصار.

على أن الأشواق والأحوال والمواجيد يجب أن تكون مقيدة بقيود العلم الصادقة الدقيقة، فالعلم والاتباع أولاً، والأحوال والمواجيد ثانياً. وإن كل الدخائل التي دخلت التصوف، فعكّرت صفاءه، ولونت سناءه، دخلت إليه عن طريق الجهل، ونقول عن كل من تصوّف جاهلاً: (ليته لم يتصوف).

وأقول: إن من تحقق ولم يتفقه تزندق، كما قال العلماء؛ ذلك أن الشريعة حاكمة على التصوف، فكل ماخالف الشريعة لا وزن له ولا اعتبار.

وسيلاحظ القارئ كثرة النقول عن ابن تيمية وابن القيم؛ ليعتبر المتهورون من السلفيين بهما، فهؤلاء المتهورون لم يعد لديهم ميزان يزنون به أمور الدين إلا كلام ابن تيمية وابن القيم؛ فوقعوا فيما يحذِّرون منه من الغلو في مشايخ الصوفية، فغالوا وأفرطوا فيهما.

تعريف التصوف

قال الكلاباذي - رحمه الله تعالى- في كتاب «التعرف»:

«قولهم في الصوفية: لم سميت الصوفية صوفية؟

قالت طائفة: إنما سميت الصوفية صوفية؛ لصفاء أسرارها، ونقاء آثارها.

وقال بشر بن الحارث: الصوفي مَن صفا قلبه لله.

وقال بعضهم: الصوفي من صفت لله معاملته فصفت له من الله عز وجل كرامته.

وقال قوم: إنما سموا صوفية؛ لأنهم في الصف الأول بين يدي الله جل وعز؛ بارتفاع هممهم إليه، وإقبالهم بقلوبهم عليه، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه.

وقال قوم: إنما سموا صوفية؛ لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصفَّة الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ.

وقال قوم: إنما سموا صوفية؛ للبسهم الصوف...» اهـ[1].

وقال ابن تيمية: «وهؤلاء نُسبوا إلى اللبسة الظاهرة، وهي لباس الصوف، فقيل في أحدهم: (صوفي)، وليس طريقهم مقيداً بلباس

---

(١) «التعرف لمذهب أهل التصوف» ص٢١، ط. دار الكتب العلمية، ١٤٠٠هـ.

الصوف، ولا هم أوجبوا ذلك، ولا علقوا الأمر به، لكن أضيفوا إليه؛ لكونه ظاهر الحال»[1].

وقال العلامة محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر في كتابه «رسائل الإصلاح»[2]: «اختلفوا في أصل كلمة الصوفية، وذهبوا فيه مذاهب: أصحها أنها مأخوذة من الصوف؛ لأن الزهَّاد كانوا يعمدون إلى لبس الصوف بُعداً وتجنباً للبس الفاخر من الثياب.

وهناك آراء ضعيفة، منها: أن الصوفية كانوا يقيمون بمسجد رسول الله ﷺ عابدين متفقهين لا يفارقونه إلا لجهاد عدو. وهذا الوجه لايوافق قاعدة النسب في اللغة، فإن القاعدة تقضي أن يقال في النسب إلى صفة: صُفِّيَّة، لا صوفية.

ومنها: أن الصوفية نسبة إلى آل صوفة، تشبّهاً لهؤلاء الزهاد بآل صوفة، وهم قوم كانوا يخدمون الكعبة في الجاهلية ويتنسكون. ويبعد هذا الوجه أن آل صوفة قد ذهبوا بذهاب عصر الجاهلية. وقد تسمَّى هؤلاء العباد والزهاد في الإسلام باسم الصوفية، وقبلوا هذا الاسم، ولا أحسبهم يرضون بنسبتهم ولو على وجه التشبيه إلى طائفة كانت في الجاهلية على غير هدى.

---

(١) رسالة الصوفية والفقراء لابن تيمية ص ٢٥.

(٢) ص ١٩٠ - ١٩١.

ومنها: أنها نسبة إلى الصوف، على معنى أنهم آثروا الانكسار فكانوا كالصوفة المرمية. وهذا وجه سخيف لا يُلتفت إليه.

ومنها: أن الصوفية نسبة إلى الصف؛ لأنهم في الصف الأول بين يدي الله تعالى. وقاعدة النسب لا تساعد على هذا الوجه، كما أنها لا تساعد على أن يكون مأخوذاً من الصفاء؛ لصفاء نفوسهم وخلوص قلوبهم من شوائب الأهواء، وسيئات الأخلاق.

وهذا الاسم حدث بعد عهد السلف، قال السهروردي في كتاب «عوارف المعارف»: لم يُعرف هذا الاسم إلى المئتين من الهجرة، وذكر ابن تيمية جماعة من الزهاد منهم الفضيل بن عياض المتوفى سنة ١٨٧، وقال: في عصرهم حدث اسم التصوف. وقال القشيري في «الرسالة»: واشتهر هذا الاسم - يعني التصوف- قبل المئتين من الهجرة، وذكر حسن صديق في كتاب «أبجد العلوم»: أن أول من دعي بهذا الاسم أبو هاشم الصوفي، وقد توفي أبو هاشم هذا سنة ١٥٠.

والتصوف: رياضة النفس ومجاهدة الطبع؛ بردّه عن الأخلاق الرذيلة، وحمله على الأخلاق الجميلة ابتغاءَ السعادة. وهذه الرياضة والمجاهدة تكون بالعكوف على العبادة، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يُقبل عليه الجمهور من لذّة مال أو جاه» اهـ[1].

---

(١) «رسائل الإصلاح» ص ١٩٠ – ١٩١.

فهـذا الاسـم لم يكن شائعاً في زمن الصحابة - رضوان الله تعالى عليهم- فقد كان القوم عبّاداً زهاداً، لم يختص فريق منهم بشعار ولا نِحْلة يمتازون بهما عن البقية، بل كان الجميع على محجة الهدى الواضحة، يُحْيون ما أحياه القرآن والسنة، تقيدوا بنصوصهما وأوامرهما فاتبعوهما، وحملوا أنفسهم على لزوم الاتباع، والميل عن الابتداع، فكان عصرهم أرقى العصور وأزهاها، بَيْد أنه لما تطاول الزمن بعد عصر الصحابة، وفُتحت الدنيا على الناس، فمالت بهم، ومالوا بها، وظهرت بوادر الفساد - بقي فريق من الناس متبعين خطة السلف، ناهجين نهجهم، عاملين على إحياء السنن وإماتة البدع، صرفوا قلوبهم عن الدنيا وزخرفها، وزهدوا فيها زهداً حقيقياً، فإن حازوا شيئاً منها فهو بأيديهم لا بقلوبهم.

وعُرفت هذه الفئة من الناس بالصوفية، وهو اسم محدث كما علمت، والأقرب أنهم إنما سُمُّوا به لأن شعارهم كان لبس الصوف.

فالتصوف هو تنقية الظاهر والباطن من المخالفات الشرعية، وتعمير القلب بذكر الله تعالى، ومراقبته، وخشيته، ورجائه، والسير في العبادات والأعمال على النهج الشرعي طبق السنة الشريفة، وخلافاً للبدعة السيئة التي يحظر الإسلام التلبس بها.

أنواع التصوف

١ - التصوف النقي:

قال العلامة حسنين محمد مخلوف في تقديمه لكتاب «رسالة المسترشدين» للمحاسبي:

«التصوف الإسلامي تربية علمية وعملية للنفوس، وعلاج لأمراض القلوب، وغرس للفضائل، واقتلاع للرذائل، وقمع للشهوات، وتدريب على الصبر والرضا والطاعات.

وهو مجاهدة للنفوس، ومكابدة لنزعاتها، ومحاسبة دقيقة لها على أعمالها وتروكها، وحفظ للقلوب عن طوارق الغفلات، وهواجس الخطرات، وانقطاع عما يعوق السالك في سيره إلى الله، وزهادة في كل ما يلهي عن ذكر الله، ويعلق بالقلوب سواه.

وهو معرفة لله ويقين، وتوحيد لله وتمجيد، وتوجه إلى الله، وإقبال عليه، وإعراض عما سواه، وعكوف على عبادته وطاعته، ووقوف عند حدوده، وتعبّد بشريعته، وتعرّض لنفحاته وهباته التي يخص بها أولياءه وأحبابه فضلاً منه وكرماً.

وجملة القول فيه قبل تدوينه كفن إسلامي وبعده: أنه علم وحكمة، وتبصرة وهداية، وتربية وتهذيب، وعلاج ووقاية، وتقوى واستقامة، وصبر وجهاد، وفرار من فتنة الدنيا وزينتها وابتعاد.

فالتصوف كما ترى: لب الشريعة وروحها، وثمرتها وحكمتها. وقد قال سيد الطائفة الجنيد: علمُنا هذا مقيَّد بالكتاب والسنة، ومن لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث لايقتدى به في هذا الأمر، والطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ.

وقد اختص هذا النوع من العلم الشرعي في عصر التدوين - كما أشار إليه ابن خلدون في «مقدمته» - باسم (التصوف) أو (علم الحقيقة)، كما اختص النوع الآخر منه الخاص بالأحكام الفرعية في العبادات والمعاملات باسم (الفقه) أو (علم الشريعة).

٢- التصوف المنتحل المبتدع:

وهناك تصوف زائف انتحله قديماً فئام من الناس، أشربوا تعاليم الباطنية الحلولية، وتدثروا بدثار الصوفية، اجتذاباً للعامة، وتغريراً وخداعاً وتلبيساً، ودسُّوا في التصوف إلحادهم ومقالاتهم الشنيعة في الدين إضلالاً للمسلمين، هؤلاء ليسوا من الصوفية ولا التصوف في شيء، وينكرهم كل الإنكار أولئك الأعلام الذين ذكرناهم وأضرابهم، ويحسبونهم أدعياء في نسبه مزورين، وزنادقة ملحدين.

وقد كشف خبأهم، وفند مزاعمهم، وأبطل تصوفهم كثير من الأئمة.

٣- التصوف المنحرف المزوَّر:

وهناك آخرون انتسبوا إلى الصوفية زوراً، واتخذوها سمة وحرفة، وتوارثوا فيما بينهم بَدَعاً وشعارات زائفة، وتقاليدَ منكرة يبرأ منها التصوف وأعلامه من أولي العلم واليقين.

وهؤلاء كذلك أدعياء في التصوف، دخلاء في الصوفية، مبتدعون آثمون.

وإحقاقاً للحق، وإنصافاً للصادقين: يجب أن لا يحملوا أوزار أولئك الأدعياء المبطلين، وأن لا يطلق القول في ذم التصوف والصوفية، بل يعطى كل فريق حقه من المدح أو الذم، ومن الترغيب أو التحذير، دون تعصب أو تحيف» اهـ[1].

الطوائف المدسوسة في التصوف:

نعم إن تلك الطوائف التي اندست بين القوم، أو دست من أقوالها المشبوهة في كتبهم ومقولاتهم وأشعارهم حتى شوشت وشوهت على الخلَّص منهم، لا ينبغي أن تحول بيننا وبين إنصاف

---

(١) تقريظ العلامة الشيخ حسنين محمد مخلوف لرسالة «المسترشدين» بتحقيق الشيخ عبدالفتاح أبوغدة رحمه الله تعالى، ص٢٣- ٢٨ باختصار.

القـوم، وتحريـر أقـوالهم، حتى نعرف سقيمها من صحيحها، ونفيد منها، ونعرف معروفها وننكر منكرها، قال ابن تيمية: «وقد انتسبت إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم» اهـ[1].

إن أكثـر نقـاد التـصوف، إنـما عـرفوا الـصوفية من خلال الزبد الطـافي على السطح، وغاب عنهم البحث في الأعماق، والتعرف على مـا يـنفع الـناس، ومـا ذلـك إلا بسبب تعصب الكثير منهم، وضيق أفقهم، وسطحية نظرتهم، وغاب عنهم أن «في كل ميدان من الميادين أدعـياء، نجدهم في الميدان الديني، وفي الميدان السياسي، وفي الميدان العلمـي، ونجـدهم كـذلك في مـيدان التـصوف» كما يقول الدكتور عبدالحلـيم محمـود في تحقـيقه لكـتاب «المنقذ من الضلال» للغزالي[2] «ولـيس مـن الإنـصاف أن تحمـل عـلى التـصوف أوزار الأدعـياء واللـصقاء الـذين يندسُّـون في صـفوفه نفاقـاً واحتـيالاً، أو جهـلاً وفـضولاً، فإنـه مـا مـن نحلة في القديم والحديث سلمت من أوزار اللصقاء الذين ينتمون إليها من غير أهلها..» كما يقول عباس محمود العقاد في كتابه «التفكير فريضة إسلامية».

---

(١) «مجموع الفتاوى» ١١/ ١٨.

(٢) ص ٢٦٧.

بين الصوفية والسلفية

الصوفية الحقة لا تخالف السلفية المخلصة من أتباع المذاهب السنية الأربعة، التي تريد تنقية الإسلام من كل البدع والشوائب التي لحقت به عبر العصور التي مر بها.

فالصوفي يهدف إلى تنقية نفسه وقلبه من كل شوائب الأغيار؛ حتى تصبح خالصة لله سبحانه وتعالى، والسلفي المخلص يهدف إلى تنقية الإسلام من البدع والدخائل، فلا تناقض بينهما ولا تعارض، ولا يوجد التعارض إلا حيث يفقد الإخلاص، ومريد الحق لابد أن يصل إليه.

فالتصوف الصحيح هو الإسلام الكامل في مقاصده وأهدافه، والصوفية السابقون وكثير من اللاحقين، استقام سلوكهم على هذا المبدإ وفي منهجه.

هذا هو التصوف الذي كان عليه القوم -رضي الله تعالى عنهم- فقد سئل ولي الله شاه نقشبندي: بماذا يصل العبد إلى طريقكم؟ قال: بمتابعة سنة رسول الله ﷺ.

وقال - رحمه الله تعالى - أيضاً: إن طريقتنا من النوادر، وهي العروة الوثقى، وما هي إلا التمسك بأذيال متابعة السنة السنية، واقتفاء آثار الصحابة الكرام. اهـ.

ومن وصايا الشيخ خالد - رحمه الله تعالى- إلى بعض مريديه في العراق: «أما بعد: فأوصيكم بالتأكيد الأكيد بشدةِ التمسك بالسنة السنية، والإعراض عن الرسوم الجاهلية، والبدع الردية، وعدم الاغترار بالشطحات الصوفية..، واعلموا أن أحبكم إلي أقلكم اتباعاً وعلاقة بأهل الدنيا، وأخفكم مؤونة، وأشغلكم بالفقه والحديث..» اهـ.

ولنستمع إلى الإمام الرباني، مجدد الألف الثاني، الشيخ أحمد الفاروقي السرهندي - رحمه الله تعالى - وهو يحذر من البدع ويأمر بتركها، فيقول: «قال عليه الصلاة والسلام: «ما أحدث قوم بدعة، إلا رفع مثلها من السنة» رواه الإمام أحمد في «مسنده» اهـ»[1].

---

(١) من كتاب «العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد» للأستاذ عبد الحميد طهماز. والحديث في «مسند» أحمد من حديث غضيف بن الحارث الثمالي ٤/ ١٠٥.

الكتاب والسنة أولاً وقبل كل شيء

والجنيد - رحمه الله تعالى - سيد القوم وإمامهم - كما وصفه القشيري - قال في هذا الموضوع: «علمُنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ، الطرق كلها مسدودة على الخلق، إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ، واتبع سنّته، ولزم طريقته...» اهـ.

وقال رحمه الله تعالى: «مذهبنا هذا مقيد بالأصول: بالكتاب والسنة، فمن لم يحفظ الكتاب، ويكتب الحديث، ويتفقه: لا يقتدى به» اهـ[1].

وقال الشيخ الشعراني - رحمه الله تعالى- في كتابه: «كشف الغمة»: «كل طريق لم يمش فيه الشارع ﷺ فهو ظلام، ولا يكون أحد ممن مشى فيه على يقين من السلامة وعدم العطب».

وقال رحمه الله تعالى: «دوروا مع الشرع كيف كان، لا مع الكشف فإنه قد يخطيء...، ينبغي إكثار مطالعة كتب الفقه، عكس ما عليه المتصوفة الذين لاحت لهم بارقة من الطريق فمَنعوا مطالعته! وقالوا: إنه حجاب! جهلاً منهم!» اهـ[2].

---

(١) «إغاثة اللهفان» للشيخ ابن القيم رحمه الله تعالى ١/ ١٢٥.

(٢) نقله ابن العماد الحنبلي في «شذرات الذهب» في ترجمة الشعراني ٨/ ٣٧.

التصوف بين مادحيه وقادحيه

ظُلِم التصوف الإسلامي في كثير من قراءات الناس له، ربما بسبب المصطلح، وربما بسبب انحراف بعض المنتسبين له، مما أشاع عنه أنه وافد ليست الحياة الإسلامية بحاجة إليه، فضلاً عن أنه مبتدَع، تسبب في إبعاد ذويه عن الإسهام الحضاري وعن الارتباط بالأصول الشرعية، وهذه الأسباب وغيرها - بصرف النظر عن صحتها، أو صحة بعضها، أو عدم صحته - تقرر حقيقة أن هذا الجزء من تراث المسلمين أصابه قسط كبير من الظلم، لا نغالي إذا قلنا: لم يصب بمثله جزء آخر من تراث حضارتنا.

وقد عرف تاريخ الفكر الإسلامي اتجاهات لنقد التصوف بعضها من داخله لتصحيح المسار، وبعضها من خارجه.

ذهب أهل هذا الأخير مذاهب؛ أحدها: مَدَح حتى قَبِل الأخطاء، وسوغها بالتأويل. وثانيها: غض طرفه عن كل حسن في هذا التراث، فلم يرَ فيه إلا كل خلل وفساد، وانطلق من حالات فردية إلى حكم عام وموقف شامل. وثالثها: توسط، لكنه لم يكن على شهرة السابقَيْن.

وقد عانى الفكر الصوفي من المذهبين الأوَّلين (المادح والقادح)، وحجبا جزءاً من الحقيقة عن الناس، الأمر الذي جعل كثيراً من العلماء والباحثين قديماً وحديثاً ينادون بضرورة التزام منهج وسط بين الرفض المطلق والقبول المطلق.

وتعددت أشكال نداءاتهم، فمن قائل بضرورة المنهجية قبل الحكم والنقد، ومن قائل بضرورة النظر إلى كل زوايا التصوف، واعتبار كل مراحله عند التقسيم.

وقديماً تبنى هذه الدعوة علم ابن تيمية، فنادى بخطإ القبول المطلق والرفض المطلق، وجعل الحكم هوى إن كان صادراً عن حب مطلق أو بغض مطلق. ذلكم هو ابن تيمية الذي سار في هذا الأمر على درب سابقين له من العلماء الحنابلة.

وإذا كان هناك اتفاق بين دعوة المعاصرين ودعوة ابن تيمية ومن سبقه، فإن هناك فارقاً أساسياً هو أن المعاصرين لم يقدِّموا تصوراً كاملاً للمنهج الذي ينبغي أن تكون عليه قراءة التصوف، بل أشاروا إلى بعض النقاط بإيجاز وإجمال، أما ابن تيمية فقد قدم تصوراً أكثر تفصيلاً عن المنهج في نقد التصوف، بل وطبَّقه في النظر إلى مراحل التصوف، وإلى المصطلح، وإلى رجال التصوف، ونحو هذا».

ومن أصحاب الاتجاه السليم والنظرة الموضوعية إلى التصوف: فضيلة الدكتور يوسف القرضاوي، يقول في كتابه «فتاوى معاصرة» تحت عنوان: حقيقة الصوفية:

«جاء الإسلام بالتوازن في الحياة، يعطي كل ناحية حقها، ولكن الصوفية ظهروا في وقت غلب على المسلمين فيه الجانب المادي والجانب العقلي.

الجانب المادي، نتج عن الترف الذي أغرق بعض الطبقات بعد اتساع الفتوحات، وكثرة الأموال، وازدهار الحياة الاقتصادية، مما أورث غلواً في الجانب المادي، مصحوباً بغلو آخر في الجانب العقلي، أصبح الإيمان عبارة عن «فلسفة» و «علم كلام» «وجدل»، لا يُشبع للإنسان نهماً روحياً، حتى الفقه أصبح إنما يعنى بظاهر الدين لا بباطنه، وبأعمال الجوارح لا بأعمال القلوب، وبمادة العبادات لا بروحها.

ومن هنا ظهر هؤلاء الصوفية ليسدوا ذلك الفراغ الذي لم يستطع أن يشغله المتكلمون، ولا أن يملأه الفقهاء، وصار لدى كثير من الناس جوع روحي، فلم يشبع هذا الجوع إلا الصوفية الذين عنوا بتطهير الباطن قبل الظاهر، وبعلاج أمراض النفوس، وإعطاء الأولية لأعمال القلوب، وشغلوا أنفسهم بالتربية الروحية

والأخلاقية، وصرفوا إليها جلَّ تفكيرهم واهتمامهم ونشاطهم، حتى قال بعضهم:

التصوف هو الخُلق، فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في التصوف.

وكان أوائل الصوفية ملتزمين بالكتاب والسنة، وقافِّين عند حدود الشرع، مطارِدين للبدع والانحرافات في الفكر والسلوك.

ولقد دخل على أيدي الصوفية المتبعين كثير من الناس في الإسلام، وتاب على أيديهم أعداد لا تحصى من العصاة، وخلَّفوا وراءهم ثروة من المعارف والتجارب الروحية لا ينكرها إلا مكابر، أو متعصب عليهم.

غير أن آخرين منهم غلوا في بعض الجوانب، وانحرفوا عن الطريق السوي، وعُرفتْ عن بعضهم أفكار غير إسلامية، كقولهم بالحقيقة والشريعة، فمن نظر إلى الخلق بعين الشريعة مقتهم، ومن نظر إليهم بعين الحقيقة عذرهم.

فهذا النوع من الغلو، ومثله الغلو في الناحية التربوية غلواً يضعف شخصية المريد، كقولهم: إن المريد بين يدي شيخه كالميت بين يدي غاسله، ومن قال لشيخه: لِمَ؟ لا يفلح. ومن اعترض انطرد.

هـذه الاتجاهـات قتلتْ نفسيات كثير من أبناء المسلمين، فسَرَتْ فيهم روح جَبْرية سلبية.

ولكن كثيراً من أهل السنة والسلف قوَّم علوم الصوفية بالكتاب والسنة، كما نبه على ذلك ابن القيم، فكتب عن التصوف كتاباً قيماً، هو كتاب «مدارج السالكين إلى منازل السائرين» و«مدارج السالكين» عبارة عن شرح لرسالة صوفية صغيرة اسمها: «منازل السائرين إلى مقامات ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾» لإسماعيل الهروى الحنبلي.

والحقـيقة أن كـل إنـسان يـؤخذ مـن كلامه ويُترك، والحكَمَ هو النص المعصوم من كتاب الله ومن سنة رسوله.

فنستطيع أن نأخذ من الصوفية الجوانب المشرقة، كجانب الطاعة لله، وجانـب محبة الـناس بعـضهم لـبعض، ومعرفة عيوب النفس، ومـداخل الـشيطان، وعلاجها، واهتمامهم بما يرقق القلوب، ويُذكر بالآخرة.

نـستطيع أن نعـرف عـن هـذا الكثـير عن طريق بعض الصوفية كالإمـام الغـزالي مع الحذر من شطحاتهم، وانحرافاتهم، وغلوائهم،

ووزن ذلك بالكتاب والسنة، وهذا لا يقدر عليه إلا أهل العلم وأهل المعرفة» اهـ[1].

فتوى ابن تيمية عن التصوف والصوفية

ولقد وجدت ابن تيمية - مع صرامته، وشدته - يقف من التصوف والصوفية الموقف الوسط العدل، وهذا من إنصافه، وسعة علمه، ورحابة أفقه.

وقد نقلت عنه في فتواه الثانية عن التصوف قوله بعد أن سئل عن الصوفية، فكان جوابه الذي ذكره في رسالته عن «الفقراء»، وهو أعدل ما قيل في القوم.

تقويم ابن القيم للصوفية

وكذلك أنصف الصوفية ابنُ القيم، كما تجلى ذلك في شرحه الواسع العميق المتوازن لرسالة العلامة الهروي «منازل السائرين» وقد كان ابن القيم يعظم الهروي ويوقره؛ لأنه كان حنبلياً، ولهذا حاول أن يشرح كلامه شرحاً يُقرِّبه إلى منهج الكتاب والسُّنة، وهدي سَلَف الأمة، ويحمله على أفضل الوجوه الممكنة، ومع هذا لم

---

(١) «فتاوى معاصرة» ١/ ٧٣٥ - ٧٣٨.

يملك في كثير من الأحيان إلا أن ينكر عليه، فالحق أحق أن يتبع، والرجال يُعرفون بالحق، وليس الحق يُعرف بالرجال.

ومن أوضح ما تبين فيه ذلك التوجه المعتدل قوله في شرح ما ذكره الهروي عن منزلة «الرجاء» وما جاء فيه من شطحات وتجاوزات بعد محاولته حمل كلام الهروي على أحسن المحامل:

«هذا ونحوه من الشطحات التي تُرجى مغفرتها بكثرة الحسنات، ويستغرقها كمال الصدق، وصحة المعاملة، وقوة الإخلاص، وتجريد التوحيد، ولم تُضمن العصمة لبشر بعد رسول الله ﷺ.

وهذه الشطحات أوجبت فتنة على طائفتين من الناس:

إحداهما: حُجبت بها عن محاسن هذه الطائفة، ولطف نفوسهم، وصدق معاملتهم، فأهدروها لأجل هذه الشطحات، وأنكروها غاية الإنكار، وأساؤوا الظن بهم مطلقاً. وهذا عدوان وإسراف، فلو كان كل مَن أخطأ أو غلط تُرك جملة، وأُهدرت محاسنه، لفسدت العلوم، والصناعات، والحكم، وتعطلت معالمها.

والطائفة الثانية: حُجبوا بما رأوه من محاسن القوم، وصفاء قلوبهم، وصحة عزائمهم، وحُسْن معاملاتهم عن رؤية عيوب

شطحاتهم، ونقصانها، فسحبوا عليها ذيل المحاسن، وأجروا عليها حكم القبول والانتصار لها، واستظهروا بها في سلوكهم. وهؤلاء أيضاً معتدون مفرطون.

والطائفة الثالثة: وهم أهل العدل والإنصاف الذين أعطوا كل ذي حق حقه، وأنزلوا كل ذي منزلة منزلته، فلم يحكموا للصحيح بحكم السقيم المعلول، ولا للمعلول السقيم بحكم الصحيح، بل قَبِلُوا ما يُقبل، وردُّوا ما يرُد.

وهذه الشطحات ونحوها هي التي حَذر منها سادات القوم، وذموا عاقبتها، وتبرؤوا منها، حتى ذكر أبو القاسم القشيري في «رسالته»: أن أبا سليمان الداراني رئي بعد موته، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي. وما كان شيء أضر علي من إشارات القوم» اهـ[1].

أركان التصوف

يقوم التصوف على ركنين أساسيين: أولهما: الذكر. وثانيهما: الشيخ المرشد.

(١) «مدارج السالكين» ٢/ ٣٧ - ٤٠ طبع السنة المحمدية بمصر.

أولاً – الذكر:

حقيقة الذكر:

قال الكلاباذي – رحمه الله تعالى –: «حقيقة الذكر أن تنسى ما سوى المذكور في الذكر؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ [الكهف: ٢٤] يعني إذا نسيت ما دون الله فقد ذكرت الله.

وقال النبي ﷺ: «سبق المفرِّدون»، قيل: ومن المفردون يا رسول الله؟ فقال: «الذاكرون كثيراً والذاكرات»[١]، والمفرِّد: الذي ليس له معه غيره. وقال بعضهم: الذكر طرد الغفلة، فإذا ارتفعت الغفلة فأنت ذاكر وإن سكت»[٢].

فوائد الذكر:

في الذِّكر من الفوائد والخصوصيات ما لا يحصى، وقد عد ابن القيم في «الوابل الصيب» للذكر أكثر من مئة فائدة ذكر منها في الفائدة العاشرة: «أنه يورث الذاكر المراقبة حتى يدخله في باب الإحسان، فيعبد الله تعالى كأنه يراه، ولا سبيل للغافل عن الذكر إلى مقام الإحسان، كما لاسبيل للقاعد إلى الوصول إلى البيت» اهـ[٣].

---

(١) رواه مسلم (٢٦٧٦).

(٢) «التعرف لمذهب أهل التصوف» ص١٠٤.

(٣) «الوابل الصيب» ص٦٢، ط. دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٥هـ.

كما ذكر في الفائدة الثانية عشرة والثالثة عشرة: أنه يورث القرب منه، فعلى قدر ذكره لله عز وجل يكون قربه، ويفتح له باباً عظيماً من أبواب المعرفة، وكلما أكثر من الذكر ازداد معرفة[1].

وقال: [الفائدة] الثانية والأربعون: أن الذاكر قريب من مذكوره، ومذكوره معه معية بالقرب والولاية والمحبة والنصرة والتوفيق، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ﴾ [النحل: ١٢٨]، ﴿ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠].

وللذاكر من هذه المعية نصيب وافر، كما في الحديث الإلهي: «أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه»[2]...

والمعية الحاصلة للذاكر معية لا يشبهها شيء، وهي أخص من المعية الحاصلة للمحسن والمتقي، وهي معية لا تدركها العبارة، ولا تنالها الصفة، وإنما تُعلم بالذوق، وهي مزلة أقدام إن لم يصحب العبد فيها تمييز بين القديم والمحدث، بين الرب والعبد، بين الخالق والمخلوق، بين العابد والمعبود.. اهـ[3].

---

(١) السابق، ص٦٢.
(٢) رواه أحمد بإسناد صحيح ٢/ ٥٤٠.
(٣) ص٩٣.

شمول ذكر الله تعالى لأنواع كثيرة:

قال الحافظ ابن حجر: «لايتعين للذكر شيء مخصوص لايجزىء غيره، بل كل ماصدق عليه ذكر أجزأ، ويدخل في ذكر الله تعالى: تلاوة القرآن، وقراءة الحديث النبوي الشريف، والاشتغال بالعلم الشرعي» اهـ[1].

أنواع الذكر عند رسول الله ﷺ:

قال الشيخ ابن القيم في كتابه «زاد المعاد»[2]:

فصل في هديه ﷺ في الذكر. كان النبي ﷺ أكمل الخلق ذكر الله عزّ وجل، بل كان كلامه كله في ذكر الله وما والاه، وكان أمره ونهيه وتشريعه للأمة ذكراً منه لله تعالى، وإخباره عن أسماء الرب وصفاته وأحكامه وأفعاله ووعده ووعيده: ذكراً منه له، وثناؤه عليه بآلائه وتمجيدُه وحمدُه وتسبيحه: ذكراً منه له، وسؤاله ودعاؤه إياه ورغبته ورهبته: ذكراً منه له، سكوته وصمته: ذكراً منه له بقلبه.

فكان ذاكراً لله تعالى في كل أحيانه، وعلى جميع أحواله، وكان ذكره لله تعالى يجري مع أنفاسه: قائماً وقاعداً، وعلى جنبه، وفي مشيه وركوبه، ومسيره ونزوله، وظعنه وإقامته. اهـ.

---

(١) «فتح الباري» ١٣/ ٢٣.
(٢) ٢/ ٣٧.

مجالس الذكر هي مجالس العلم والفقه:

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي - رحمه الله تعالى- في «شرح حديث العلم»[1]: وفي الحديث المعروف عن النبي ﷺ: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا»، قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «حِلَق الذِّكْر» .اهـ[2].

وكان ابن مسعود - رضي الله عنه - إذا ذكر هذا الحديث قال: أما إني لا أعني القصّاص، ولكن حلق الفقه.

ولما حضرت معاذ بن جبل الوفاة قال: مرحباً بالموت، مرحباً بزائر جاء على فاقة، لا أفلح من ندم، اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب البقاء في الدنيا لجري الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن كنت أحب البقاء لمكابدة الليل الطويل، ولظمإ الهواجر في الحر الشديد، ولمزاحمة العلماء بالرُّكَب في حِلَق الذِّكر.

ويعني بحلق الذكر هنا: حلق العلم. ومنه قوله تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣].

وقال عطاء الخراساني في مجالس الذكر: مجالسُ الحلال والحرام، كيف تشتري وتبيع، وتصلي وتصوم، وتنكح وتطلق، وتحجُّ، وأشباه هذا.

---

(١) ص١٧-٢١.

(٢) رواه من حديث أنس الترمذي (٣٥١٠)، ومن حديث جابر نحوه: الحاكم «المستدرك» (١٨٢٠).

وكـان أبـو الـسوار العدوي في حلقة يتذاكرون فيها العلم، ومعهم فتى شابٌّ، فقال لهم: سبحان الله والحمد لله. فغضب أبو السوار وقال: ويحك في أي شيء كنا إذاً؟! كما رواه الإمام أحمد في كتاب «الزهد»[1].

وروى الدارمي[2]: عـن وهـب بـن منـبه قال: مجلس يتنازع فيه العلـم أحـب إلي من قدره صلاة، لعل أحدهم يسمع الكلمة فينتفع بها سَنَةً أو ما بقي من عمره.

ومـن مجـالس الذكـر أيـضاً: مجالس العلم التي يذكر فيها تفسير القرآن، وتروى فيها سنة رسول الله ﷺ، ويعلّم فيها الفقه في الدين.

ومجالـسه أفـضل مـن مجـالس ذكر الله بالتسبيح والتحميد والتكبير؛ لأنها دائرة بين فرض عين أو فرض كفاية، والذكر المجرد تطوع محض[3].

الذكر المشروع والذكر الممنوع:

«هـذا وذكـر الله تعـالى باللـسان، سراً وجهـراً، بانفراد أو جماعة مـشروع بـشروطه وآدابـه، ولكـن الذكر الذي يقوم به بعضُ الناس بحـركات مـوزونة مرتبة، وترنيمات متصنعة بأصوات مُطربة، وقفز

---

(١) ص ٣١٦-٣١٧.

(٢) في «سننه» باب في فضل العلم والعالم، ١/ ٩٥، (٣٢٥).

(٣) مـن تعلـيقات العلامة الشيخ عبدالفتاح أبو غدة – رحمه الله – على «رسالة المسترشدين» ص ١٠٩ – ١١١.

ووثب، ونط وجذب، وانحناء للأمام ورفع، والتفات عنيف ودفع، ودوران بالحلقات، وضرب للأقدام على إيقاع الكف والنغمات، تنبو الفطر السليمة عنه، و يتبرأ القلبُ الخاشعُ منه، لو خشع قلبُ هذا لخشعت جوارحُه، كما قاله الإمام التابعي الجليل سعيد بن المسيب رضي الله عنه. وأشدُّ من هذا نُكراً: أنهم يذكرون اسم (الله) - سبحانه- في أول دوران حلقاتهم بلفظ هادئ مفهوم، ثم يُسرعون ويُسرعون بالذكر والخلع والوثب، حتى لا يُفهم عنهم ما يقولون! فما هي إلا أصوات تنخفض وترتفع، وأنفاس مبهورة تشتد وتندفع، وهمهمة تتردد، وحركات تتجدد، ويعُدّون ذلك ذكراً لله! فإنا لله - من قلة الأدب مع الله - وإنا إليه راجعون.

جاء رجل إلى الإمام أحمد بن حنبل - رضي الله عنه - فسأله عن قراءة القرآن بالتلحين، فمنعه وقال له: لا يجوز، فقال الرجل: ولم لا يجوز؟ فقال له الإمام أحمد: ما اسمُك؟ قال: محمد، قال له: أيعجبك أن يقال لك: يا مُوحامد؟![1].

فالذكر لله تعالى يقومُ على تعظيم المذكور سبحانه، وعلى توقير اسمه وإجلاله، وإكباره وإعظامه، ولا يهولنك كثرةُ الفاعلين لهذا! فهم من

(١) انظر «فتح القدير شرح الهداية» ١/ ١٧٣ (باب الأذان).

العـوام في فقـه الدين، والأدب مع رب العالمين. فانظر إلى أحدهم كيف يكره (التلحين) في اسمه، ولا يكرهه في اسم الله تعالى وكلامه سبحانه!!

ومـا عُهـد فعلُه من السلف في القرون المشهود لها بالخير. وما يقال في تعليل تلك الحركات والوثبات: إنها لمنع الخاطر أن يشتغل بغير الله تعالى؛ فهـو مـردود بما عُرف من حال السلف، فقد كانوا أحرص منا على حفظ خواطـرهم وقلـوبهم وجعلهـا مـع الله، ولم يكونوا يفعلونه، بل ذُكر لهم فأنكروه أشد الإنكار، وهم الأئمة المقتدى به، والمرجوعُ إليهم.

تحريم التحريف في أسماء الله الحسنى:

ويـشترط - أيضاً - في الجهر أن لا يكون فيه تحريف في أسماء الله الحسنى، كما يشترط ألا ترافقه حركات جماعية منتظمة تشبه حركات الراقصين، كما سبق بيانه.

قـال العلامة الشيخ محمد الحامد: والذي نراه من بعض متصوفة عصرنا من الحركات الزائدة حالَ الذكر، إن كانت من وجد صحيح ووارد قـوي أفقـد صـاحبه التماسـك حتى غدت حركاته كحركات المرتعش؛ فلا إثم عليه ولا لوم ولا محذور، وإنه في حال غالبة. وما لم يكـن كـذلك: فإن لم تشبه حركاته حركات المخنثين: فلا، أيضاً. أما إن أشبهتها، وكانت حركات جماعية بخفض ورفع على مقدار معلوم

لا يـزيد أحـدهم ولا يـنقص عـن الآخـرين شيئاً ولو يسيراً، وكان شـبيهاً بالـرقص: فـإن الـشرع يمـنع مـن هـذا، ويلزم الوقوف عند الأدب الشرعي الإسلامي. والذِّكرُ المحرَّف ممنوع، والواجب النطق باسـم الله الكريم كما أنزله إلينا دون تغيير، والإنشاد مسموح فيه إن لم يكن حاوياً معاني غير صحيحة، كالقول بالحلول وما إليه... اهـ.

وقـال أيضاً: إن الغيرة على اسم الله المجيد تحمل صاحبها على النصح بالتزام تصحيح حروفه والنطق به تامّاً كاملاً، فإنه أكرم الأسماء وأمجدها، وإن المـرء ليغـضب إذا نـودي باسـمه الشخصي محرفاً، فكيف باسم الله المجيد! وهـو سـبحانه أحب إلى المؤمن من نفسه، ومن كان كذلك ذاق حلاوة الايمان على ما جاء في الحديث النبوي الشريف(١).

وأمـا الذكـر بلفـظ «آه» طـيًّا لمـا في القلـب مـن اسم «الله» وحبساً للـنَّفَس بالهمـزة منه، ثم تصريفاً له بالهاء الصاعدة من القلب للتفريج عن قلوب المنتهين، ولتحريك قلوب المبتدئين، وللاستعانة على سرعة الاستحـضار: فأمـر مـتوقف على ورود الشرع بأن لفظ «آه» من أسمائه تعالى التي هي توقيفية ليس للاختراع إليها سبيل، نعم ينسب إلى بعض

(١) انظر «صحيح» البخاري (١٦، ٢١، ٦٠٤١، ٦٩٤١)، ومسلم (٤٣).

الصوفية أنهم يثبتونه اسماً له تعالى، وليتهم بينوا دليل هذه التسمية من دليل سمعي - كتاب أو سنة - فإن الأمر من حيث هو متوقف عليهما.

وبعد: فما الذي يضر إخواننا الذاكرين لله تعالى أن يَدَعوا ما فيه شبهة إلى ما ليس فيه شبهة وقد قال فقهاؤنا رضي الله تعالى عنهم: إذا ترددنا في شيء بين كونه بدعة أو سنة، فتركه لازم.. اهـ.

وإلى الفقهاء الرجوع في الأحكام لا إلى المفسرين والمحدثين والصوفية، مع احترامنا لهم.

ثانيًا - الشيخ المرشدُ

وهو الدعامة الثانية التي يقوم عليها صرح التصوف، ولا بد لكل من أراد سلوك الطريق من شيخ يدله عليه ويرشده إليه، يضع له العلامات، وينبهه على المزالق والمخاطر، يبين له الدسم ويبعده عن السم، يستمع إلى أقواله ويتلقى من أحواله.

ومن حيث إن الإنسان جاهل إلا من علمه الله تعالى، كان الشيخ المرشد العارف بالله تعالى، والبصير بطريق الوصول إليه أصلاً في الطريق لا يهمل، ولا يتغاضى عنه كدليل مرافق، ورفيق موافق، والله سبحانه وتعالى هو الهادي إلى سواء السبيل. وليس للشيخ إلا الدلالة بالقول والفعل، وبالحال الصالحة التي تسري بالتوجه

السليم، والدعاء للمريد السالك في الطريق، ولا نكران لسريان الحال، فإنا نرى الحماسة والحزن والفرح، نرى كل هذه وأمثالها، تسري من نفس إلى نفس، ومن قلب إلى قلب. فهذا التعليم بالحال والأفعال وليس الكلام.

وليست الطريقة إلا العمل بالإسلام على قدم الجد والصبر، وأركانها هي: الذكر، والبعد عن الناس قدر الإمكان، والصمت إلا عن خير، وعدم الإمعان في الشبع، وقيام شيء من الليل، وصحبة الشيخ المرشد الكامل جسداً وروحاً، وإن افترقت الأبدان فالصحبة الروحية قائمة..

ضرورة صحبة المرشد

صحبة المرشد الكامل - وهو أندر من الكبريت الأحمر في هذا الزمان - مصححة للتصورات والأعمال، ومطهرة للقلب من الرعونات والأوضار، وملحقة للقاصر بالكامل، حتى يدرج في دائرة الولاية..

إن السير بدون مرشد عالم قد لا يفضي إلى الغاية المرجوة، فلا بد منه، وكما لا يكون المرء طبيباً بمطالعة الكتب فقط دون أن يدخل دُور الطب الرسمية، ثم بعد النجاح في الامتحان يعمل في المشافي تحت نظر الأطباء، كما لا يكون الطبيب طبيباً إلا بهذا، لا يكون السير إلى الله تعالى مضمون النتائج، إلا بصحبة عالم تقي نقي ورع،

قد تربى بصحبة غيره. وهكذا إلى أن ينتهي الأمر إلى السيد الأعظم، حضرة سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم..

تعريف المرشد الكامل:

والمرشد الكامل: هو العالم العامل، ذو الحال الصالحة القوية، الذي إذا توجه بالدعاء إلى مريده نقله من حال إلى حال بإذن الله، ورقي به من مقام إلى مقام بإذن الله، مع الاستعانة بالصبر، والصلاة، والذِّكر، والفكر، والمجاهدة، والمكابدة..

شروط المرشد:

١ - **الإجازة بالإرشاد:** وهذا المرشد شرطه أن يكون تربى على يد مرشد مثله، حتى نضج علماً وحالاً وكمالاً وقوةَ إفاضة، فأجازه بالإرشاد، وهكذا حتى تتصل الطريق بإجازة شيخ عن شيخ إلى حضرة سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم.

ولا بد لهذا المرشد من أن يكون قد اجتاز العقبات، وتخلص من العيوب عيباً فعيباً، وارتقى مقاماً فمقاماً، حتى قعد مقعد الكمال، فهو بصير بما يعتري السالك، وله من قوة توجهه القلبي ما يدرأ به عنه الأخطار، إن شاء الله تبارك وتعالى. من ظفر بهذا المرشد؛ فليشدَّ يده عليه، وليكن له سامعاً مطيعاً، فإنه الطبيب النفسي الذي تجب الرحلة

إليه، والجلوس بين يديه. وآية معرفته: الاستقامة على الكتاب والسنة، فإن رأيت منه خلاف ذلك ففر منه فرارك من الأسد.

٢- العلم الواسع، والعمل بالعلم: وأن يكون عالماً واسع العلم؛ لئلا يميل في السير إلى غير الاستقامة، فيميل المريد بميله، فيكون ضالاً مضلاً، ومن كان كذلك فهو بعيد عن الإرشاد كل البعد. والعلم الديني يعم علم العقائد، وعلم الأحكام في العبادات والمعاملات، وعلم أحوال القلب وأمراضه المعنوية، والسبيل إلى تخليصه منها بمعالجته بالإضافة الروحية الصحيحة، والتوجه القلبي القوي. ويشترط مع علمه الجم الغزيز أن يكون عاملاً به؛ فإن القدوة بالعامل أكثر منها بالعالم عند الجماهير، وعند المبتدئين من المريدين أيضاً. وليكن عمله متجلياً طبق الشريعة، فلا يأذن للحال التي تغشاه ومريديه بأن تتأمر عليه وعليهم إن كانت مخالفة لقواعد الشريعة، أو لركائز الأعمال.

٣- الترفع عن مال المريد: ويتأكد عليه الترفع عن مال المريد، فإنَّ أكل الدنيا بالدين حرام، إلا إذا كان إهداءً عن طيب نفس، وخلوص نية، وبعد عن الاغترار. فإن رأيت شيخاً على خلاف ذلك فهذا شيخ الدرهم والدينار.

٤- المرشد ليس معصوماً: ومع كل هذا، فالمرشد ليس معصوماً؛ لأن العصمة لا تكون لغير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومن هنا تكون صحبة الشيخ المرشد شاقة لمن لم يرزق الاستسلام له، وقد قص الله تعالى علينا من نبإ موسى والخضر - على نبينا وعليهما الصلاة والسلام - ما فيه إشارة إلى هذا.

وليكن على بال المريد أن المرشد ليس نبياً معصوماً، فقد يجري عليه ما يجري على غيره من القضاء والقدر، لكنه سريع الأَوْبة، وشيك التوبة، وإنها لتغسل الحوبة.

وقد وقع بعض الشيوخ فيما صورتُه المخالفة، وكان ذلك امتحاناً منه لمريديه، فتغير بعضهم وثبت غيرُه، فقال للذي ثبت: لِمَ لَمْ تتغير كما تغير أصحابك؟ فقال: ما صحبتك على أنك معصوم، ولكن صحبتك على أنك أعرف بطريق الله مني..

٥- الإخلاص: ولقد لخص السيد الكبير الشيخ أحمد الرفاعي - رحمه الله تعالى - أهم صفات الشيخ المرشد بقوله: كم طيرتْ طقطقة النعال حول الرجال من رأس! وكم أذهبت من دِين! والرجل مَن جمع الناسَ على الله لا على نفسه، وجذبهم إلى الله لا إلى نفسه، وبقي قلبه عنهم بمعزل، وهو ذاك الفارس البطل. اهـ.

فقد أوضح الشيخ أمراً مهماً من الموازين التي نقيّم بها الشيخ، ومنها نهيه لمريديه عن الإفراط فيه، وتبجيله بما ليس فيه.

الأحـــوال

الأحـوال مـن ثمـرات الاسـتغراق في ذكـر الله سبحانه وتعالى، يخلقهـا الله سـبحانه وتعـالى في قلوب الذاكرين. وسميت أحوالاً؛ لأنها تتحول ولا تدوم، وقد تسمى وجداً؛ لوجودها في القلب، وإذا قـويت قـد تفـيض عـن القلـب، فتظهـر عـلى الجـوارح حـركاتٍ اضطرارية أو بكاءً أو صراخاً. وأكثر ما تظهر على جوارح المبتدئين، أما المتمكنون فإنهم يَصرعون أحوالهم ويمنعونها من الظهور.

قال الكلاباذي في «التعرف»: التواجد ظهور ما يجده في باطنه على ظاهره، ومن قوي تمكَّن فسكـن. قال الله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

فالتصوف حالٌ أكثر منه قالاً، وإن من سلك سبيل القوم بصدق ذاق مـا ذاقـوه، إن شـاء الله تعـالى لـه ذلـك. ولا يُظهـر أصـحاب الأحـوال أحـوالهم، إلا عـند الاضـطرار الـشديد الـذي يفقـد معه التماسـك والتثبت، على أن الإكثار من الصلاة والسلام على حضرة سيدنا رسول الله ﷺ له أثره في تهدئة الحال.

صاحب الحال لايقلد أثناء غلبة الحال عليه:

هـذا ولا بـد مـن التنبـيه إلى أن بعـض المتـصوفة قـد تغلبهم أحوالهم، ويـصدر عنهم أثناء ذلك ما يخالف الشرع، فلا يجوز تقليدهم في هذا الذي يصدر عنهم في حالة الغلبة، كما نبه على هذا كبار العلماء، رحمهم الله تعالى.

قال الإمام الرباني السرهندي - رحمه الله تعالى -: علامة الوصول إلى حقيقة اليقين: مطابقه علومه ومعارفه لعلوم الشريعة ومعارفها، وما دامت المخالفة موجودة، ولو بأدنى شعرة ؛ فذلك دليل عدم الوصول، وكل خلاف واقع من كافة مشايخ الطرق للشريعة، فهو مبني على سَكَرِ الوقت، وهو لا يكون إلا في أثناء الطريق، والمنتهون إلى النهاية كلهم في الصحو، والوقت مغلوب لهم، والحال والمقام تابع لكمالهم، فتحقق أن مخالفة الشريعة علامة على عدم الوصول إلى الحقيقة...اهـ.

الأحوال والأعمال:

ولا يظن إنسان أن الأحوال الطيبة ثمرة الذكر فقط، بل لا بد من الأعمال التي أمر بها الشرع وتعبَّدنا الله بها، قال الكلاباذي - رحمه الله تعالى -: اعلم أن علوم الصوفية علوم أحوال، والأحوال مواريث الأعمال، ولايرث الأحوال إلا من صحح الأعمال، وأول تصحيح الأعمال معرفة علومها ؛ وهي علوم الأحكام الشرعية..اهـ. فالوجد الشرعي ثمرة الاتباع للكتاب والسنة.

وقال الحسن البصري - رحمه الله تعالى -: لا يغرنك قول من يقول: المرء مع من أحب، فإنك لن تلحق الأبرار إلا بأعمالهم، فإن اليهود والنصارى يحبون أنبياءهم وليسوا معهم.

الشطح والتحذير منه

وقد يغتر بعض المبتدئين بحاله، وتغلب عليه نفسه، فيتلفظ بألفاظ مخالفة للشرع، وقد أطلقوا على هذه الحاله اسم (الشطح)، وحذروا منه ومن الأقوال الناتجة عنه أشد تحذير، ولقد دخل إلى التصوف عن هذا الطريق دخائل كثيرة. والعلماء الصالحون يحذرون منها، وينبهون عليها، وينصحون المبتدئين بألا يقرؤوا كتب القوم حتى لا يقعوا على أمثالها. وإن كثيراً منها مدسوس عليهم، وقد يتكلمون بكلمات لا يفهم حقيقة معناها إلا من كان مثلهم وبلغ رتبتهم. فيجب الامتناع من مطالعة تلك الكتب حرصاً على سلامة الاعتقاد، وإبقاءً على حسن الظن بالقوم، رحمهم الله تعالى.

والاشتغال بالتفسير والحديث والفقه أجدى علينا وعلى الأمة من الاشتغال بهذه الدقائق التي قل أن يخرج المشتغل بها سليماً إن كان من المبتدئين، وقد قال العلماء: «طعام الكبار يضر الصغار».

ومن وصايا مولانا خالد النقشبندي - رحمه الله تعالى -: أما بعد: فأوصيكم، وآمركم بالتأكيد الأكيد بشدة التمسك بالسنة

السنية، والإعراض عن الرسوم الجاهلية، والبدع الردية، وعدم الاغترار بالشطحات الصوفية.. اهـ[١].

ويقول الدكتور البوطي في كتابه «هذا والدي»[٢]:

هذه المسألة هي المعضلة الكبرى التي جعلت فئة من الناس تنظر إلى التصوف من حيث هو - أي جملة وتفصيلاً - على أنه هرطقة وزندقة وشرود عن ضوابط القرآن والسنة، وهي التي جعلت فئة أخرى تفهم الأمور على ظواهرها، وتتقبل العبارات الموهمة، بل الباطلة على أساس الثقة بقائليها، أو بمن نسبت إليهم.

وكلا الفريقين شارد في قراره هذا عن الحق، متورط في حيف وظلم كبيرين.

أما الأول منهما: فمتورط في ظلم التصوف، والجنوح عن الحق في حكمه الجائر عليه. وأما الثاني: فمتورط في ظلم الشريعة والدين؛ إذ مضى يحملها أوزار كلمات وعبارات ما هي منها في شيء... على أن كثيرين من هذا الفريق الثاني لا ينتهون من تردادهم لهذه

---

(١) من كتاب «العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد» للشيخ عبد الحميد طهماز.

(٢) ص ١٠٨-١١١.

العبارات إلى أي فهم لمعانيها، وإنما يبتلعونها ابتلاعاً بسائق من الثقة المجردة كما هي.. تماماً كما يزدرد أحدهم لقمة من طعام دون أي تذوق ولا مضغ.

فنحن نستنكر العبارات التي لا تتفق معانيها المتبادرة منها مع القرآن والسنة وما يجب الإيمان به من مبادئ العقيدة الإسلامية، ولا نرى تردادها وقراءتها.

فالشطحات التي تقرأها في «الفتوحات المكية» لابن عربي[1]، والتي تخالف في ظاهر مدلولها أصول العقيدة ومبادئها، فإنه لا يجوز قراءتها فضلاً عن تبنيها والإيمان بها، ولو على سبيل الإغماض والتسليم.

ونقرر ما قرره من قبلُ الإمام ابن حجر الهيتمي في «فتاويه الحديثية»، من حرمة قراءة «الفتوحات»، وما شابهه كـ«فصوص

---

(١) وقد اتفق كل من ترجم للشيخ ابن عربي أنه قد دُس عليه في كتابه «الفتوحات» وغيره، دس عليه الباطنيون ما شاؤوا أن يدسوا. أكد ذلك ابن المقري في «نفح الطيب»، وابن العماد في «شذرات الذهب»، والشعراني في «اليواقيت والجواهر». وحاجي خليفة في «كشف الظنون»، وهذا من أهم ما يقتضي الإعراض عن «الفتوحات» ونحوه. ورحم الله من قال: خذ ما صفا ودع ما كدر.

الحكم».. لا اتهاماً للمؤلف، ولكن سداً لذريعة التشويش، أو الافتتان بظاهر ما تدل عليه تلك الشطحات من الكفريات.

وكذلك بقية الذين فاهوا أو نقل عنهم بعض الشطحات[١]، وقوله: سبحاني ما أجل شاني! وكابن الفارض في بعض ما جاء على لسانه في تائيته الكبرى، فإننا ننأى عن شطحاتهم هذه، ونركن إلى الاستفادة من بقية شؤونهم، والاستشهاد ببقية كلماتهم وأقوالهم التي لا غبار عليها.

ومن قال ببعض تلك الشطحات فإنما قال ذلك في حالة فناء انتابته وعرضت له، غاب فيها عن شهود ذاته، فاستغرق في شهود الحق وحده، ففاه بتلك الكلمات وهو تحت سلطان ذلك الفناء عن الذات، وفي غيبوبة عن قرار العقل ويقينه؛ ولذا فإن كلاً منهم كان يعود عن تلك الشطحات، ويبرأ منها، ويؤكد نقيضها بمجرد أن [تزول] تلك الحال[٢].

---

(١) كأبي يزيد البسطامي الذي نقل عنه قوله: ما في الجبة إلا الله

(٢) ذكر ابن تيمية قريباً من هذا الكلام في تأويل شطحات أبي يزيد البسطامي الذي كان يمدحه ويقدسه. انظر «مجموع» الفتاوى ١٠/ ٣٣٧، وينظر كتاب «السلفية» للبوطي ص ٢٠٤ فما بعد.

الكرامة والولاية

الكرامـــة: أمر خارق للعادة، غير مقرونة بدعوى النبوة، ولا هي مقدمة لها، ولا يشترط فيها التحدي كالمعجزة.

وهـي عـبارة عـن إكرام الله لولي من أوليائه الصالحين، من أتباع الرسل الملتزمين بأحكام الشرع، بما يظهره الله على يديه من أمور.

ولا يـشترط فـيها دائـماً أن تكـون خارقـة لنوامـيس الكـون، أو خارجة عما يألفه الناس، وليس لها صورة أو كيفية معينة.

وهـي ثابـتة بأصل الكتاب والسنة، ومنها - على سبيل المثال -: قوله تعالى في قصة مريم:

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]، وقصة أصحاب الكهف، وغيرها ممّا ورد في كتاب الله، أو في سنة رسوله ﷺ، أو في سير الصحابة، رضوان الله عليهم.

وكرامات الصحابة كثيرة، مثل ما كان لأسيد بن حضير، ورجل من الأنـصار، عندما خرجا من عند رسول الله ﷺ في ليلة مظلمة، وفي يد كل

منهما عصاً، فأضاء لهما عصا أحدهما، حتى مشيا في ضوئها، فلمّا افترقا أضاءت عصا الآخر، فمشى كل منهما في ضوء عصاه"[1].

يقول ابن تيمية: ومن أصول أهل السنة والجماعة: التصديق بكرامات الأولياء، وما يجري الله على أيديهم من خوارق العادات، في أنواع العلوم والمكاشفات، وأنواع القدرة والتأثيرات، كالمأثور عن سالف الأمم في سورة الكهف وغيرها، وعن صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين وسائر قرون الأمة، وهي موجودة فيها إلى يوم القيامة. اهـ"[2].

ومفهوم الصُّوفِيَّة للكرامة لا يختلف عن هذا المعنى.

يقول الكلاباذي: أجمعوا على إثبات كرامات الأولياء، وإن كانت تدخل في باب المعجزات، كالمشي على الماء، أو كلام البهائم، وطي الأرض، وظهور الشيء في غير موضعه ووقته.

ويقول: كرامة الولي بإجابة دعوة، وتمام حال، وقوة على فعل، وكفاية مؤنة يقوم لهم الحق بها، وهي ممّا تخرج عن العادات"[3].

---

(١) انظر: «صحيح» البخاري (٤٦٥، ٣٦٣٩، ٣٨٠٥).

(٢) «التعرف لمذهب أهل التصوف» ص ٨٧ – ٨٨.

(٣) «التعرف لمذهب» أهل التصوف ص ٩٠.

ويقـول القـشيري: واعلم أنَّ من أجلّ الكرامات التي تكون للأولياء: دوام التوفيق للطاعات، والعصمة عن المعاصي والمخالفات"[(١)].

ويقـول سـهل بن عبد الله حين سئل عن الكرامات: وما الآيات ومـا الكرامات! شيء تنقضي لوقتها، ولكن أكبر الكرامات أن تبدل خُلقاً مذموماً من أخلاق نفسك بخُلق محمود"[(٢)].

والـولي صـاحب الكرامة لا يستأنس بهذه الكرامة، بل يتضاعف خـوفه وخشيته من الله؛ فيزداد له تذلّلاً، وخضوعاً، وطاعة، وشكراً لـه؛ مخافة أن تكون من قبيل الاستدراج. وهذا ما عناه الكلاباذي في قـوله: وأمّا الأولياء فإنّهم إذا أظهر لهم من كرامات الله شيء ازدادوا لله تـذللاً وخـضوعاً وخشيةً واستكانةً وإزراءً لنفوسهم وإيجاباً لحق الله علـيهم، فيكون ذلك زيادة لهم في أمورهم، وقوة على مجاهداتهم، وشكراً لله تعالى على ما أعطاهم"[(٣)].

---

(١) «الرسالة القشيرية» ص ١٦٠.

(٢) «اللمع» للطوسي ص ٤٠٠.

(٣) «التعرف لمذهب أهل التصوف» ص ٨٩.

ومن خلال مفهوم الصُّوفِيَّة لمعنى الكرامة، فهم يقسمونها إلى قسمين: كرامة حسية، وكرامة معنوية.

والكرامة الحسية: هي المشتهرة بين عامة الناس، والمتمثلة في خرق العوائد في الأمور المادية.

أمّا الكرامة المعنوية: فهي لأهل الخصوص من عباد الله، والمتمثلة في التوفيق إلى حفظ آداب الشريعة، والاستقامة مع الله ظاهراً وباطناً، والتزام مكارم الأخلاق وغيرها من الأمور المعنوية"[1].

والكرامة المعنوية هي الأفضل عند أهل الطريق؛ وذلك لأنها لايداخلها استدراج ولا مكر، ولا يشاركهم في صورتها فاسق ولا عاص، بخلاف الكرامات الحسية المعروفة لدى العامة، والتي قد يلتبس بها المكر والاستدراج.

ويذهب معظم الصُّوفية إلى استحباب ستر الكرامة، إلاَّ إذا كانت لغرض صحيح، كنصرة دين الله، أو تحقيق مصلحة، وغير ذلك. أمّا إظهارها دون سبب موجب فهو مذموم عندهم؛ لأنَّ فيها شيئاً من حظ النفس والعُجْب والمفاخرة.

---

(١) «نظرية الاتصال عند الصوفية» ص ٢٠٢.

يقول الشعراني: إن الكرامة عند أكابر الرجال معدودة من جملة رعونات النفس، إلاَّ إن كانت لنصرة دين، أو جلب مصلحة؛ لأنَّ الله تعالى هو الفاعل عندهم لا هم[1].

وحتى لا تكون الكرامة مشاعاً لكل دعيّ، فقد ذكر الصُّوفَّية لها شروطاً خاصة تميزها عن غيرها من صور التحايل والخداع.

وأهم شروطها: أن تظهر على يد المتصف بالاستقامة واتباع التكاليف الشرعية، المقبل على الطاعات بصدق نية، وإخلاص قلب، وزهد في متاع الدنيا.

يقول القشيري: ولا بد أن تكون هذه الكرامة فعلاً ناقضاً للعادة في أيام التكليف، ظاهراً على موصوف بالولاية[2].

ويقول الشعراني: الكرامة لا تقع إلاَّ على يد مَن بالغ في الاتباع للشريعة حتى بلغ الغاية[3].

---

(١) «اليواقيت والجواهر» ٢ / ١٠٤.

(٢) «الرسالة القشيرية» ص١٥٨.

(٣) «اليواقيت والجواهر» ٢/ ١٠٢.

وتبقى الكرامة أولاً وأخيراً منحة إلهية وهِبَة رحمانيَّةٌ، لا تكتسب بكثرة الطاعات، والاجتهاد في العبادات، بل الفضل لله يؤتيه من يشاء"[1].

(١) «نظرية الاتصال عند الصوفية» ص ٢٠٦-٢٠٧.

الإلهام والكشف بين الإفراط والتفريط[١]

الإلهام هل هو حُجَّة في الأحكام الشرعية؟

هذا موضوع يهتم به علماء العقيدة والتوحيد؛ لأنه يتصل بطرائق العلم التي يتوصل بها إلى المعرفة بالحقائق الكبرى من الألوهية والنبوة والمعاد.

وكذلك يهتم به علماء الأصول؛ لأنه يتعلق بتحديد مصادر المعرفة الشرعية، وهل هناك مصدر لها غير الكتاب والسنة، وما دلاّ عليه من الاجماع والقياس؟

ويهتم به أيضاً علماء التصوف، بل هو أخص شيء بهم، وهم أصحابه، وهم الذين يُنقل عنهم أنهم يعتمدونه مصدراً من مصادر المعرفة.

ولذا كان تحرير هذا الأمر من المهمات العلمية، حتى لا تضيع الحقيقة بين طرفي النفي والغُلاة في الإثبات، كأكثر الأمور في عالم الفكر، يُفرِط ويُفَرِّط فيها آخرون.

وكثيراً ما يعبر الصوفية عن الإلهام أو الكشف بإلقاء معنى أو فكرة أو خبر أو حقيقة في النفس، أو القلب بطريق الفيض، بمعنى

---

(١) هذا البحث مستفاد بتصرف واختصار من كتاب «موقف الإسلام من الإلهام والكشف» للدكتور القرضاوي ص ١٤ - ١١١.

أن يخلـق الله فيه علماً ضرورياً لا يملك دفعه، أي ليس بطريق التعلم والاكتساب المعهـود، بل هو يُفاض على النفس فيضاً بغير اختيارها ولا إرادتهـا، سـواء سـعتْ إلـيه سـعياً عن طريق الرياضة الروحية، وتفـريغ القلب من كل شيء، أم أُفيض ذلك عليها كرامة من الله لها، وخرقاً للعوائد من أجلها، وإن لم تتعمد السعي إليه.

ومن شأن هذا العلم الضروري - إذا أُلقي في القلب - أن يُحرك إلى العمل، ويبعث على الفعل أو الترك، فهو نتيجة وثمرة له.

مواقف العلماء من الإلهام:

واذا عرفنا حقيقة الإلهام، بقي علينا أن نعرف مواقف أهل العلم المسلمين مـن الإلهـام، ومـدى الـثقة بما يأتي عن طريقه من معارف وأفكار. ونستطيع أن نقسم هذه المواقف إلى ثلاثة:

١- موقف النفاة الرافضين للإلهام.

٢- موقف المثبتين القائلين بحجية الإلهام.

٣- موقف المتوسطين بين الفريقين.

موقف النفاة المنكرين للإلهام:

ومن الإنصاف أن نقول: إنه لا يوجد أحد - من العلماء المعتبرين لدى الأمة - من ينفي الإلهام نفياً كلياً وينكره إنكاراً مطلقاً.

بل النفي منصبّ على الاعتداد به أصلاً ودليلاً شرعياً، واعتباره حجة مستقلة، بحيث يُستدل به على الحق والصواب في باب المعارف والاعتقادات، وعلى مشروعية الفعل أو الترك في باب التعبدات والمعاملات.

ويبدو أن موقف النفاة الرافضين للإلهام هنا، كان رد فعل لموقف المتصوفة الذين غلوا في إثبات الإلهام، وزعموا أن له حجية ثابتة، ومصدرية مستقلة للأحكام الشرعية، فنفى ذلك العلماء المتمسكون بالكتاب والسُّنَّة، وأنكروه.

المغالون في إثبات الإلهام وحجيته واعتباره:

أما الفئة الثانية فهي التي غلت في إثبات الإلهام، وفيما له من حجية شرعية: علمية وعملية، بحيث يُستدل به على سلامة الاعتقاد، وسداد القول، وصحة العمل، واستقامة المنهج.

وهؤلاء هم المنحرفون من دعاة التصوف، أو أدعيائه على الحقيقة، وليس كل الصوفية معهم في ذلك؛ فإن الصوفية الأوائل ملتزمون بالكتاب والسنة، وإنما هؤلاء قوم لم يتحصَّنوا بمحكمات الشرع، فمالتْ بهم رياح البِدَع القولية والعملية يميناً وشمالاً، فاعتمدوا على المتشابهات، وأعرضوا عن المحكمات، وهذا أصل الزيغ والغلو.

الإلهام ليس بحُجَّة شرعية:

وهـؤلاء قد رد عليهم الأصوليون بأن الإلهام ليس بحُجَّة، سواء في بـاب المعارف والاعتقادات، أم باب الأعمال والتعبدات، وتظاهر عـلى ذلـك علماء أصول الدين، وعلماء أصول الفقه، وردوا على من زعم أنه حُجَّة ودليل شرعي، وأبطلوا كل ما استدلوا به.

أما في باب المعرفة والاعتقاد فيذكر النسفي في «عقائده» المشهورة والمعتمدة لدى المتأخرين من الأشاعرة والماتريدية، وهي من الكتب التي كانت - ولا تزال - تدرس بالأزهر - أن أسباب العلم للخلق ثلاثـة: الحـواس الـسليمة، والعقـل، والخـبر الـصادق، ومـنه خـبر الرسول المؤيَّد بالمعجزة.

وبعـد أن حـصر أسـباب العلـم اليقينـي في هـذه الـثلاثة قـال: «والإلهام ليس من أسباب المعرفة بصحة الشيء عند أهل الحق»(١).

ضلالة ازدراء العلم الشرعي:

ومـن ضـلالات المعظمين للكشف والإلهام، والقائلين بحجيته، المؤمنـين بقدسـيته: ازدراؤهم للعلم الشرعي: علم القرآن، والسنة،

---

(١) «العقائد النسفية» مع شرحها، ص ٤١.

والفقه، والأصول، وما تفرع عنها، وتحقير أولئك الذين يذيبون أعمارهم في طلبه وتحصيله، والتعمق فيه، مستغنين بكشفهم المزعوم عن السعي لتلقي العلم من أهله، جاهلين أو متجاهلين أن الأنبياء لم يُورِّثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورَّثوا أُممهم العلمَ، وأن «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[1]، كما نطق بذلك حديث المعصوم، وكما أجمعت عليه الأمة.

والعلم المفروض طلبه هنا هو علم النبوة، الذي به يُعرف الله سبحانه، ويعرف الطريق إليه، ويُعرف ما يحبه وما يكرهه، ولا طريق لذلك إلا معرفة الشريعة التي جاء بها سيدنا محمد ﷺ، وبها يعرف المسلم دينه، ويصحح عقيدته وعبادته، ويضبط سلوكه.

فالعلم بشرع الله تعالى، كما نزل به وحيه إلى رسوله ﷺ في كتابه وسُنته، هو الدليل المعصوم الذي لايخطئ ولا ينسى.

---

(١) رواه من حديث أنس: ابن ماجه (٢٢٤)، ومن حديث ابن مسعود: الطبراني «المعجم الكبير» ١٠/ ١٩٥، ومن حديث الحسين بن علي: الطبراني «الصغير» ١/ ٥٨، ومن حديث أبي سعيد الخدري: القضاعي «مسند الشهاب» ١/ ١٣٥ (١٧٤).

الصوفية الأوَّلون ملتزمون باتباع الشريعة:

ولا غرو أنْ وجدنا من سادات الصوفية مَن أنكر على المنحرفين هذه الدعاوى العريضة التي زعموا فيها الاستغناء عن علم الكتاب والسُّنَّة.

ونذكر هنا بعض ما نقله ابن القيم في «مدارج السالكين» عن المعتدلين من أكابر شيوخهم:

«قال سيد الطائفة وشيخهم الجنيد بن محمد رحمه الله: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على مَن اقتفى آثار الرسول ﷺ.

وقال: مَن لم يحفظ القرآن، ويكتب الحديث؛ لا يُقتدى به في هذا الأمر؛ لأن علمنا مُقيَّد بالكتاب والسنَّة.

وقال: مذهبنا هذا مُقيَّد بأُصول الكتاب والسُّنَّة.

وقال أبو حفص - رحمه الله-: مَن لم يزنْ أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسُّنَّة، ولم يتهم خواطره، فلا يُعدّ في ديوان الرجال.

العلم اللدنيُّ:

أما العلم اللدُنيّ الذي طنطن به بعضهم، وزعم الاستغناء به عن العلم الكسبي، فقد قال فيه ابن القيم في شرح ما جاء في كلام الهروي عنه في «منازل السائرين»:

«العلم اللدُنّي»: هو العلم الذي يقذفه الله في القلب بلا سبب من العبد، ولا استدلال، ولهذا سمي لدُنيًّا. قال تعالى: ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا

لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾ [العلق: ٥]، ولكن هذا العلم أخص من غيره؛ ولذلك أضافه إليه سبحانه، كبيته وناقته وبلده وعبده، ونحو ذلك. فتضمحلّ العلوم المستندة إلى الأدلة والشواهد في العلم اللدُنّي الحاصل بلا سبب ولا استدلال. هذا مضمون كلامه (يعني الهروي صاحب «المنازل»)».

قال ابن القيم: «ونحن نقول: إن العلم الحاصل بالشواهد والأدلة، هو العلم الحقيقي، وأما ما يُدَّعى حصوله بغير شاهد ولا دليل؛ فلا وثوق به، وليس بعلم. نعم قد يقوى العلم الحاصل بالشواهد ويتزايد، بحيث يصير المعلوم كالمشهود، والغائب كالمعايَن، وعلم اليقين كعين اليقين، فيكون الأمر شعوراً أولاً، ثم تجويزاً، ثم ظناً، ثم علماً، ثم معرفة، ثم علم يقين، ثم حق يقين، ثم عَيْن يقين، ثم تضمحلّ كل مرتبة في التي فوقها، بحيث يصير الحكم لها دونها، فهذا حق...

فالعلم اللدُنيّ: ما قام الدليل الصحيح عليه أنه جاء من عند الله على لسان رسله، وما عداه فلدُنّي من لَدُن نفس الإنسان، منه بدأ وإليه يعود.

وقد انبثق سد العلم اللدُنّي، ورخص سعره، حتى ادَّعت كل طائفة أن علمهم لدُنيّ، وصار مَن تكلم في حقائق الإيمان والسلوك وباب الأسماء والصفات بما يسنح له، ويُلقيه شيطانه في قلبه، يزعم أنَّ علمه لدُنِّيّ!».

التفرقة بين الشريعة والحقيقة

إن اعتداد كثير من الصوفية بأذواقهم وخواطر نفوسهم، وما يعرض لهم من إلهام وكشف، وادعاء بعضهم العصمة لهذه الإلهامات والخواطر، قد انتهى بطائفة منهم إلى الوقوع فى ضلالات عدة.

فمنها: تفرقتهم بين «الشريعة» التي يجيء بها النص، و«الحقيقة» التي يجيء بها الكشف، واعتبارهم الأُولى من نصيب العوام، والثانية من حظّ الخواص، ومما يقولونه في ذلك: مَن نظر إلى الخلق بعين الشريعة مقتهم، ومَن نظر إليهم بعين الحقيقة عذرهم!

ويستدلون على هذه التفرقة بقصة موسى والخضر التي ذكرها الله في سورة الكهف؛ فقد كان موسى ينظر بعين الشريعة؛ فأنكر خرق السفينة، وقتل الغلام بغير جناية، وإقامة الجدار لقوم لا يستحقون إكراماً ولا معونة.

وكان الخضر ينظر بعين الحقيقة؛ ولهذا بيّن لموسى ما وراء كل فعلة من هذه الفعلات من أسرار وغيوب، فسلَّم موسى للخضر؛ لأن موسى لم يكن معه إلا علم الظاهر، علم الشريعة، والخضر معه علم الباطن، وهو علم الحقيقة.

والعلم الذي عند الخضر لم يأت نتيجة تعلّم ولا اكتساب، إنما هو علم وَهْبي من لَدُن الله مباشرة وبلا واسطة، ويسمونه «العلم اللدُنيّ» أخذاً من قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ [الكهف: ٦٥].

ومن هنا جاء عن بعض المتصوفة احتقارهم لعلم الشرع الذي يُعرف من النصوص، ويُطلب من العلماء، ويُروى بالأسانيد، ويسمونه «علم الوَرَق».

وإنما يعنيهم علم «الباطن» أو «الحقيقة» أو «العلم اللدُني» كما يسمونه، علم الخضر لا علم موسى، علم «أصحاب الأذواق» لا علم «أصحاب الأوراق»، علم الصوفية لا علم المحدِّثين والفقهاء.

بل قال بعضهم: إن العلم حجاب بين صاحبه وبين الله!!

ولا ريب أن هذا جهل مبين، وغرور قبيح، وشرود عن الصراط المستقيم الذي سار عليه رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام، ومَن تبعهم بإحسان، بل سار عليه سادة الصوفية الأوائل أنفسهم.

الحالات والمشاعر الوجدانية:

ومن ذلك حالات ومشاعر وجدانية، قد تزج بأحدهم فيما يسمونه الفناء؛ وقد يمتد به هذا الحال، أو يطبق عليه ويمتلك مشاعره، فينطق بكلمات منافية في ظاهرها لمبادئ العقيدة وقواعد الشرع، فيثور من

ذلـك جـدل شـديد بـين مَـن يدافـع عـن هـذه المشاعر وتلك التعابير والكلمات، ومَن ينكرها وينسب أصحابها إلى الزندقة أو الحلول.

أمـا الفـناء: فهـي حالة من الاستغراق تعتري أصحابها، تجعلهم يذهلـون بالمكـوِّن - جل جلاله - عن الأكوان التي من حولهم؛ مع يقيـنهم العقـلي بوجـودها، ولكنهم ذاهلون عن يقينهم العقلي هذا. وآيـــة ذلـك: أنهــم أثناء مــرورهــم بهذا الفناء، يكونون في حالة جـذب تمـنعهم من التعامل مع الناس في شؤونهم المعيشية على نظام أو نـسق سوي. وقد كان هذا هو شأن الشيخ أحمد البدوي (٥٩٦ - ٦٧٥هـ) مع الناس، فيما روى المترجمون له، معظم حياته، ومنهم من كانت تعتريهم هذه الحالة إلى حين، ثم يعودون إلى الصحو والتعامل الطبيعي مع الحياة.

وحدة الوجود ووحدة الشهود:

يقول الدكتور البوطي أيضاً في كتابه «هذا والدي» ص ١١٢ - ١٢٠:

«أمـا وحـدة الوجـود بمعـناها الفلـسفي فإنهـا باطل من القول والاعتقاد، يكفر معتقدها. وأما وحدة الشهود، وهي شهود صفات الخالق في مكوناته ومخلوقاته، فإنها من أهم نتائج الإيمان وثمراته.

وعقـيدة وحـدة الوجـود بمعـناها الفلسفي، هي اعتقاد أن وجود الخالـق والمخلـوق وجـود واحد، ومن ثم فحيثما وجد الخالق لا بد أن

يـوجد المخلـوق كجـزء من وجوده، أي الخالق عز وجل؛ إذ لو لم نقل بـذلك لكـان وجـود الخالـق وحده وجوداً ناقصاً؛ لأن ما يكمل بغيره يـصبح ناقـصاً عـند افـتراض عدم وجود ذلك الغير.. وهذا الاعتقاد يـؤدي إلى ضرورة القـول بقـدم المخلـوقات؛ إذ إن وجود الله لا بد أن يكون مساوياً في الوقت ذاته لوجودها، كما يؤدي إلى القول بالحلول.

ولا فـرق في بطلان هذا الاعتقاد وكفره بين أن يصاغ التعبير عنه بهـذه الطـريقة أو أن يصاغ التعبير عنه بطريقة القول بنظرية الفيض، أي القـول بـأن وجـود الله كـان لا بـد أن يفـيض على ما وراء ذاته، المتمثل فيما يسمى بالأغيار أو المكونات.

ولـيس اعتقاد الحلول، أي حلول الذات الإلهية في عين مخلوقاته، إلا لازماً من مستلزمات عقيدة وحدة الوجود بالمعنى الدقيق الذي ذكرناه.

وإنـما الاعـتقاد المنطقـي الـسليم هـو أن نعلم أن الوجود الحق - أي الوجـود الذاتي المستقل بنفسه - إنما هو وجود الله وحده، ثم إن الله خلق بمحـض تدبـيره وإرادتـه وقدرتـه وجود المكونات التي أبدعها، كُلاًّ في مـيقاته الذي حدده له. فالوجود الأزلي القديم هو وجود الله لا غير؛ إذ لم يكـن في الأزل ما يسمى غيراً.. واستمر الأمر على هذا المنوال ما شاء الله أن يـستمر، ثـم إن قـدرة الله تعلقـت بإنجاز خلق كل ما قد قضى الله أن يخلقه، فدخلت تلك المخلوقات عندئذ في نطاق ما يسمى بالوجود.

ومعنـى وحـدة الشهود: أنها حال تلاحق شعور الإنسان، وليس قراراً يصدر من عقله. فهو على الرغم من يقينه العقلي الجازم بوجود هـذه المكـونات وحـدوثها ومخلوقيتها، لا يرى فيها أو منها إلا مرايا تتجلى فيها صفات الخالق المنبثقة عن أسمائه الحسنى. فهو لا يرى في كثـرة المكـونات التـي يـوقن بهـا إلا وحـدة الخالـق التي تهيمن على مشاعره لغيبته عن شعوره.

القول بسقوط التكليف:

مـن أخطـر الانحـرافات التـي وقعـت لبعض أدعياء الصوفية، والتي تخرج صاحبها من دائرة الإسلام: القول بسقوط التكليف.

ذلك أن بعضهم وقع في الإباحية، وطووا بساط الشرع، ورفضوا الأحكام، وسووا بين الحلال والحرام.. وهم فئات[1].

ويقـرر جمهـور الـصوفية أن التكالـيف الـشرعية لا تـسقط عـن المكلـف بـأي حـال، حتـى ولو بلغ درجة الوصول، بل إن الوقوف عـند حـدود الشرع والتمسك بأحكامه، هو المقياس الذي يحكم به على صدق الصوفي الواصل مهما ظهرت عليه من كرامات وأحوال. يقـول أبـو يزيد البسطامي: لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات

(١) «الإحياء» ٣/ ٤٠٥.

حتى ارتقى في الهواء فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود، وأداء الشريعة"[١].

ويتشددون في الأمر إلى درجة أنهم يعتبرون أن من أخلّ بفريضة أو ضيَّعها يوشك أن يضيع دِينه، ويسقط في مهاوي البدعة. وفي هذا يقول أبو محمد عبدالله بن منازل: لم يضيع أحد فريضة من الفرائض إلا ابتلاه الله تعالى بتضييع السنن، ولم يُبْلَ أحد بتضييع السنن إلا أوشك أن يبتلى بالبدع"[٢].

نحو قراءة منهجية للتراث الصوفي الإسلامي[٣]:

تتواصل الحضارات الإنسانية في فكرها المتسلسل في حلقات تطورها، ويفيد اللاحق فيها من السابق، لا تشذ عن ذلك حضارة، ولا يخرج على هذه القاعدة فكر، لكن هذه الإفادة تتوقف على طريقة قراءة أهل الحضارة لتراثهم؛ فكلما كانت القراءة وفق منهاج لا يغفل الحقائق، ولا يُسقط ظروف الحاضر على الماضي فيحكم

---

(١) «الرسالة القشيرية»، ص١٤.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٦.
(٣) هذا البحث مستفاد من الدكتور أبو اليزيد العجمي الدمنهوري، في مجلة «الدراسات الإسلامية» مع زيادة كثيرة وتصرف.

عليه وفق هذه الظروف، إلى غير ذلك من ضوابط المنهاج، ودقة تطبيقه؛ كانت إمكانية توظيف هذا التراث للحاضر أيسر وأخصب، والفكر الصوفي المنبثق من التجربة الصوفية لدى المسلمين جزء من تراثنا الإسلامي، وقد مر بمراحل منذ نشأته وحتى يوم الناس هذا، اعتورته فيها ظروف، وحكمتْه عوامل، لكنه أدى دوراً يمكن للمسلم المعاصر أن يُفيد منه، وأن يوظفه فى إصلاح حاضره وتصور مستقبله، لكن ذلك رهن بمنهاج القراءة لهذا التراث، والهدف من الحكم عليه فى مرحلة ما، أو عند مدرسة ما، ونحو ذلك.

وقد قرئ التصوف الإسلامي من البعض وفق منهاج منضبط، فكانت نتيجة القراءة حكماً اختلف بشكل واضح عن حكم آخرين - وهم كثرة - قرأوا التراث الصوفي بعيون ورؤوس غير منهجية، أو على الأقل في هذه النقطة، وترتب على هذا انعدام الإفادة من هذا التراث مع خصوبته وثرائه، ومناسبته لحل كثير من مشكلات المسلم المعاصر.

ولا بد من أجل تحقيق الفائدة من هذا التراث أن نلتزم عند قراءته بهذه الحقائق والمسلّمات، وأذكر الآن أهم تلك الضوابط المنهجية في قراءة وفهم التراث الصوفي الإسلامي:

الحقيقة الأولى: الحاجة إلى تنمية الطاقة الروحية لدى الإنسان:

لم يعد أمر وجود الجانب الروحي في الإنسان موضع جدل، بعد أن غدا حقيقة ثابتة تتلمسها في حوار الفلسفة التي اهتمت بدراسة طبيعة الإنسان مقارنة بطبيعة الحيوان، لتصل إلى أن الإنسان بصفاته يفوق حجمه الطبيعي الحسي.

وقد ترتب على وجود هذه الحقيقة أنِ اهتمت مدارس التربية بالجانب الروحي في الإنسان، وطالبت بأن يأخذ حقه في المناهج كما يعنى بالجانب العقلي والجانب الجسدي تماماً بتمام.

الحقيقة الثانية: تصور الصوفية للشخصية المسلمة:

من المقرر أن أخلاق الإسلام هي أساس بنائه بحيث إذا افتقرت أحكام الشريعة - سواء في ذلك الأحكام الاعتقادية أو الأحكام الفقهية - إلى الأساس الخلقي كانت صورة لا روح فيها، وهيكلاً فارغاً من المضمون.

ولأن التصوف الإسلامي منبثق من الإسلام فقد حمل هذه الصفة، وصارت الأخلاق أبرز مضامينه.

الحقيقة الثالثة: الدور التاريخي للتصوف الإسلامي:

ومما ينبغي الوعي به حين نقرأ التصوف الإسلامي أن ندرك ماذا قدَّم الصوفية لمجتمعاتهم عبر مراحل التاريخ، وكيف اكتسبوا مكانة

مرموقة بين الناس، والأمر منطقي وفق مقاييس أصحاب الدراسات الاجتماعية حيث يقررون أن مكانة أي طائفة في مجتمعها إنما تتحدد بواسطة ما تقدمه وما تمتلكه من رموز الهيبة والتقدير.

الحقيقة الرابعة: أثر التصوف في العلماء والمصلحين:

ولعل أقدم تأثير للتصوف في العلماء المحافظين الرواية التي تذكر عن إسماعيل بن إسحاق السراج: أن الإمام أحمد بن حنبل ذهب مستخفياً ليسمع الحارث المحاسبي وهو بين أتباعه، وبعد أن سمعه قال: ما أعلم أني رأيت مثل هؤلاء القوم، ولا سمعت في علم الحقائق مثل كلام هذا الرجل، ومع هذا فلا أرى لك صحبتهم. وروي أنه قال: لا أنكر من ذلك شيئاً[1].

---

(١) «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي ٢/ ٢٧٩.

سلسلة مفاهيم يجب أن تصحح

هذه المفاهيم

هذه السلسلة نبدأ فيها باستعراض مفاهيم جمهور الأمة المعصومة حول بعض النقاط أو الموضوعات، وكيف بنى الجمهور هذه المفاهيم واستمدها من نصوص الكتاب والسنة متدبراً لهما بالعقل الراجح الصحيح جيلاً بعد جيلٍ ناقلاً لنا هذه المفاهيم مع نصوص الكتاب والسنة منقياً لمفاهيمه من الأهواء والنزغات، فكان بحق معبراً عن خير أمة أخرجت للناس حفظ الله بها الدين﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾. لعل هذه السلسلة تكون بشير خير لمن يريد مراجعة مفاهيمه على ضوء الكتاب والسنة مستعيناً بإخوانه فإن يد الله مع الجماعة وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية والشاردة والشاذة.

والله الهادي إلى سواءِ السبيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

دار الرازي
للطباعة والنشر والتوزيع

عمان ـ العبدلي ـ عمارة البنك الإسلامي
هـاتف 4646116 - 6 - 00962 فـاكس 4646106 - 6 - 00962
ص . ب 927601 عـمان 11190 الأردن
e-mail: alrazi003@yahoo.com
www.al-razi.net